نجاح البحث الأكاديمي بين اختيار الموضوع ودقة الإشكالية

The success of the academic research between choosing the topic and the accuracy of the problem

خلف الله بن علي

جامعة تيسمسيلت (الجزائر) Benali.khalfallah@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2023 / 05 / 21	2023 / 10 / 19	2024 / 06 / 01

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة جزئية هامة من جزئيات البحث العلمي الأكاديمي ونقصد اختيار الموضوع وتحديد الإشكالية له، فلا يمكن لأي باحث أن ينجز موضوعا مفيدا له ولغيره، وأن يضيف شيئا لمجال المعرفة الإنسانية إذا لم يحسن اختيار موضوع بحثه وأن يضع له إشكالية يقوم بحلها أثناء عملية البحث والتقصي.

الكلمات المفاتيح: المنهجية، البحث الأكاديمي، اختيار العنوان، الإشكالية.

Abstract

This study deals with an important part of the academic scientific research, and we mean choosing the topic and defining the problem for it. No researcher can complete a useful topic for himself or others, and add something to the field of human knowledge if he does not choose the subject of his research and put a problem for him to solve during the research and investigation process. .

keywords: Methodology, academic research, choice of title, problem.

1. مقدمة:

نلاحظ أنّ عصرنا يتميز عن غيره من العصور بالتطور الهائل للعلوم وفي شتى مجالات المعرفة، وبالتأكيد فإن السبب الرئيس في ذلك هو البحث العلمي، فالعلم -كما هو معروف- هو مجموعة متسلسلة من الأفكار والآراء والتصورات تسبقها الملاحظة أولا ثمّ التجربة ثانيا، وهذه الملاحظات والتجارب المنتجة للمعرفة جاء بها أو تحصّل عليها الإنسان عن طريق آلية البحث والتنقيب، ولولا البحث لما كان العلم، والحضارة الإنسانية -خاصة المعاصرة- يتقاسمها شقّان أو ركنان؛ الأول هو العلم والثاني هو البحث «فالبحث هو شعار الحياة البَانِية، المتجددة، التي تصنع الحضارة والرفاهية للإنسان»[1].

وإذا عدنا إلى الماضي البعيد أي قبل عصر النهضة الأوروبية لم نجد للبحث العلمي دورا يذكر، ولكن سرعان ما تغيّر الحال رأسا على عقب، فمع ازدياد عدد البشر في القرن التاسع عشر الميلادي (19) وتكوّن الصناعات الكبيرة، والرغبة الجامحة في زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي؛ أصبح للبحث تأثير كبير في مواجهة المشاكل والعمل على حلها؛ بغية تحقيق النجاح في مجالات الحياة المختلفة وإسعاد البشر وتقدّمهم[2]، لذلك نجد الدول المتطورة قد اهتمت بالبحث العلمي أيّما اهتمام؛ كونه من الأسباب الرئيسية للتقدم والتطور.

كما عملت على مكافأة الباحثين المنتجين للأفكار وللمعرفة التي تخدم التقدّم والتطوّر بالجوائز والأوسمة ووفرت لهم كل أسباب الحياة الكريمة بل وكل أسباب الرفاهية، وقد ساعد هذا الاهتمام الشديد بالبحث العلمي في استحداث تخصصات في الدراسات العليا تهتم بتدريس طرق البحث في الجامعات والمعاهد، كونها أساس تكوين الباحثين وإعدادهم الإعداد السليم.

2.ماهية البحث العلمي:

يعرف الباحث العلمي في الاصطلاح على أنه ذلك: «الجهد الذي يبذله الباحث تفتيشا وتنقيبا وتحقيقا وتحليلا ونقدا ومقاربة في موضوع ما بغاية اكتشاف الحقيقة أو الوصول إليها... وهو التقرير **Rapport** الموضوعي الكامل الشامل الوافي المعلل بالأدلة والأسانيد والمجرد من كل ميل أو هوى، الذي يقدّمه الباحث، ولاسيما الأكاديمي أو الجامعي، حول موضوع ما، أو مشكلة ما، إلى لجنة مختصة بغاية انتزاع الرضى أو الثناء عليه أو الإعجاب به للحصول على درجة علمية معينة»[3].

ويعرفه باحث آخر بقوله هو: «تقرير وافٍ يقدمه باحث عن عمل تعهده وأتمه، على أن يشمل التقرير كل مراحل الدراسة منذ كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة مرتبة مؤيدة بالحجج والأسانيد، وتتوقف قيمة هذا التقرير (الرسالة/البحث) على عوامل متعددة، ولكن أهم هذه العوامل هو أن يكون هدف الطالب خلال عمله البحث عن الحقيقة، فإذا ظفر بها أعلنها، اتفق مع ميوله أو لم يتفق»[4]، إذن فأهم قضية قد يؤكد عليها البحث -بعد المعارف وتنظيمها وهيكلتها- هي الحقيقة والابتعاد تماما عن الذاتية والأهواء والميولات والأيديولوجيا وكل ما من شأنه أن يجردنا من الحقيقة، والبحث العلمي من وجهة أخرى هو «عمل منظم يهدف إلى حلّ مشكلة معرفية باستقراء جميع مكوناتها التي يظن أنها أساس الإشكال»[5]، فالتنظيم أمر ضروري بل أساسي بالنسبة لعملية البحث، كما أن من يقومون بعملية البحث ونقصد الأكاديميون هنا يقدمون لمجتمعاتهم خاصة وللإنسانية عامة حلولا لما قد يصادف المجتمع من مشاكل في كل فروع المعرفة وفي كل مناحي الحياة (اجتماعية/ اقتصادية/ سياسية/ دينية/ صناعية) وغيرها.

والغرب كما هو معروف يشجعون بل يقدسون البحث العلمي في مجتمعاتهم، حتى إنهم ليخلقون هالة كبرى حول رجالات العلم والأدب والمخترعين والمبتكرين والمنظرين والفلاسفة لديهم، فيصفونهم بأنهم عظماء[6] تكريما وتعظيما لهم من جهة، ومن جهة مقابلة يزرعون في الأجيال الصاعدة حبّ العلم والبحث العلمي والاستكشاف من أجل نيل شرف العظمة.

3.الغاية من البحث العلمي:

البحث العلمي بكل أنواعه سواء كان مقالة متخصصة أو رسالة أو أطروحة غايته واحدة هي الانطلاق من حيث انتهى إليه الغير، وكذلك الإسهام في زيادة وتطوير المعرفة الإنسانية بكل فروعها، وقد يتجلى هذا الإسهام في النواحي الآتية:

أ- في دراسة أحد الموضوعات الشائكة أو المعقدة أو المختلف حولها.

ب- اكتشاف حقائق جديدة في موضوع ما يستحق الدراسة.

ج- اكتشاف عوامل وأسباب جديدة غير معروفة لحقائق موضوعات قديمة متعارف عليها.

د- في بعث أو خلق موضوع جديد من معلومات أو مادة متناثرة وترتيبها بصورة مبتكرة جديدة ومفيدة.

هـ- في فهم جديد للقديم (التراث) عن طريق قراءة جديدة له، وبطريقة بحث مغايرة للطرائق المعروفة (أي استخدام منهج جديد مغاير للمناهج المستخدمة في دراسة التراث مثلا وفهمه) [7].

وإذا عدنا إلى أعلام التراث العربي وفي مجال أهمية البحث في العلوم نجد العلوي يحصر مراتب تأليف الكتب في سبعة وهي: «استخراج ما لم يسبق استخراجه، وناقص في الوَضْحِ يتمم نقصه، وخطأ يصحح الحكم فيه، ومستغلق بإجحاف الاختصار يشرح أو يتمم بما يوضح استغلاقه، وطويل يبدد الذهن طوله يختصر من غيره إغلاق ولا حذف لما يخل حذفه بغرض المصنف الأول، ومتفرق يجمع شتات تبدده على أسلوب صحيح قريب، ومنثور غير مرتب ترتيبا يشهد صحيح النظر أنه أولى في تقريب العلم للمتعلمين من الذي تقدم في حسن وضعه وترتيبه وتبويبه»[8]، وهذا الكلام لا يكاد يختلف عما دبجه المعاصرين من تعاريف لهذا الشق من المغرفة.

4.معايير نجاح اختيار الموضوع:

في البداية يجب الإشارة إلى أننا سنركز قليلا على مجال تخصصنا ونعني اللغة والأدب العربي، وعليه ومن خلال تجربتنا فإن الاشتغال على موضوع في اللغة الأدب أمر صعب وليس كما يعتقد بعض الباحثين أنه هين وسهل، ولعل سبب ذلك يعود بالأساس إلى أنه يتوجب على الباحث في هذا المجال أولا سعة الثقافة والخلفية المعرفية الواسعة مما يمكنه من التعامل مع موضوع بحثه بسهولة، وربما الكثير من الباحثين يجدون صعوبة كبيرة في اختيار مواضيع بحوثهم، فيلجأون إلى أساتذتهم لتوجيههم، وهذه طريقة غير صحيحة إلى حدّ بعيد؛ لأنهم قد يرشدونهم إلى مواضيع قد لا تتفق مع ميولاتهم ورغباتهم فيفشلون فيها، أو قد يجدون صعوبة كبيرة في إتمام بحوثهم، لذلك كان لزاما على الباحث الناشئ أو المبتدئ أن يكثر القراءة والاطلاع على الكتب في مجال تخصّصه حتّى يكوّن رؤية شاملة تتيح له اختيار موضوع يتناسب ويتلاءم وميولاته.

وبهذه الطريقة يتخلص الباحث من الخضوع والانقياد لأفكار غيره، ويكوّن لنفسه شخصيته العلمية والتي تساعده على البحث والتنقيب، فيتحول إلى «صاحب عقل حرّ مستقل له شخصيته وله طموحه، ومحاولته الجادة في أن يشارك غيره من الباحثين آراءهم، وألاّ يكون نسخة ممسوخة أو مشوهة لهم... ومن أخطر الأشياء أن يبدأ الباحث حياته عالة على غيره من الباحثين الذين سبقوه، فإن ذلك يصبح خاصة من

خواص بحوثه، ولا يستطيع -فيما بعد- أن يتحول إلى باحث بالمعنى الدقيق لكلمة باحث، فقد انطبع بطوابع التبعية لغيره، فوجوده دائما تابع لغيره»[9]، خاصة في أيامنا بعد انتشار المعرفة على شبكة الأنترنت مما سهّل على الباحثين النقل والنسخ دون أي لمسة شخصية للباحث، فتجد الكثير من الطلبة والباحثين على أيامنا لا يستطيعون الاحتفاظ بالمعلومات في ذاكرتهم بسبب الاعتماد الشبه كلي على هذه الشبكة، والاستعانة بها بطريقة غير صحيحة، مما يجعله يدمن على الأخذ منها وبالتالي يغيب هو وتغيب شخصيته الباحثة.

وما يغفله أو يتغافل عنه الكثير من الباحثين هو قضية الخلفية المعرفية، فالقراءة والمطالعة وإدمان تصفح الكتب يكوّن شخصية الباحث تكوينا سليما وصحيحا وفعّالا، والبحث في مجال اللغة والأدب لاشكّ أنه يحتاج منّا التركيز على عينة محددة أو مجال محصور كأن نختار عصر من العصور الأدبية أو إقليم من أقاليم العالم العربي الشاسع أو شخصية أدبية أو لغوية أو نقدية، مركزين على القضايا التي تتعلق ببحثنا وموضوعه، وإذا أخذنا العصر مثلا فهو: «يعني الفترة الزمانية التي ستضم أطرف بحثه، وعلى الباحث المبتدئ أن يحدد نفسه إزاء العصر، فيختار منه جانبا أو شخصية بعينه، أما إذا اختار العصر برمّته فإن ذلك يؤول به إلى أن يضطرب الموضوع في يده؛ لاتساع ساحته الزمانية، ولنفرض أنه اختار العصر الجاهلي أقل العصور الأدبية تعقيدا... فإنه سيجد نفسه داخل غابات ملتفة لا يعرف كيف النفوذ منها لقلة تجاربه، إذ سيضطر إلى التعمق في تاريخ الجزيرة العربية القديم، وشؤون حياتها الاجتماعية والثقافية والدينية، والتعمق كذلك في معرفة تاريخ اللغة العربية ولهجاتها العتيقة، وأيضا التعمق في رواية الشعر الجاهلي وتدوينه ومعرفة خصائصه وأعلامه وسماتهم الفنية، وهي أعباء ثقال حري بالباحث الناشئ ألا يلقيها -في مطلع بحوثه- على كاهله، بل يختار منها شاعرا مثل امرئ القيس أو زهير أو النابغة، وهو حتى في اختيار الشاعر ينبغي أن يثير فيه مباحث لم يسبقه أحد إليها، حتى يفيد بحثه الدراسات الأدبية فوائد جديدة، فإذا اختار مثلا امرئ القيس أثار فيه مقارنة لغوية دقيقة بين رواية الأصمعي لديوانه وروايات غيره من اللغويين الموثوقين، وأضاف إلى ذلك مقارنة لغوية بين هذه الروايات وما وضع على امرئ القيس من الشعر المنحول الكثير»[10].

والكلام نفسه ينطبق على المواضيع المعاصرة وكذا الشخصيات المعاصرة، فمثلا القصيدة الحرة أو شعر التفعيلة في الأدب العربي المعاصر أخذ حيزا كبيرا في الساحة الإبداعية العربية إن لم نقل حل محل الشعر العمودي، وله رواد وأتباع كثر، فيختار الباحث الناشئ مثلا أثر الغرب -باعتبار الشعر الحر غربي المنشأ- في رواد القصيدة الحرة في الوطن العربي ويحدد نموذجا واحدا كالسياب أو نازك الملائكة أو صلاح عبد الصبور، أو يركز على ظاهرة من المظاهر الفنية في تلك القصيدة ويقتصر على شاعر واحد مثلا، أو تيمة معينة لدى شاعر واحد أو شاعرين.

أما فيما يخصّ الأعلام فعلى الباحث أن يتجنب المغمورين الذين لا نشاط كثير يذكرهم بل يركّز على الأعلام (شعراء أو أدباء) ذوي الصيت الذائع والملكات الخصبة المصقولة من الذين تعددت وتنوعت جوانب نشاطهم سواء الأدبي الإبداعي أو النقدي أو البحثي، وعليه الاكتفاء بجانب واحد للتعمق فيه، ومثال ذلك الشاعر العباسي الضرير بشار بن برد والذي يعده نقاد الشعر رائدا من رواد الشعر في عصره وفي عصر بني

العباس، حتى اعتبره الدّارسون والنقاد رائد التجديد وزعيمه عصرئذٍ، فلا يدرس الباحث كل ما يحيط به في بحث واحد، بل يختار جزئية أو جانبا محددا، فمثلا يقتصر على دراسة أثر بصره على شعره، أو تلفيقه بين القديم والجديد في إبداعاته الشعرية، أو تمظهر شعوبته وزندقته في نصوصه الشعرية، أو قضية حبه الحسي وغزله الإباحي، نلاحظ أن كل جزئية من هذه الجزئيات يمكن أن يبحث فيها بشكل منفرد «وشاعر كأبي تمام متعدد الجوانب أيضا، ويمكن أن يدرس عنده دراسة مستقلة، وصفه للمعارك الحربية وانتصارات العرب المدوية في عصره على البابكية وأتباعها والبزنطيين، ويمكن أن يدرس مذهبه وما يجلّل أشعاره من غموض، وما يجري فيها من معانٍ مبتكرة، وحتى الاستعارات وحدها يمكن أن تنفرد عنده بالدّرس، فيناقش فيها رأي الآمدي وغيره من نقاد العرب... وفي المتنبي جوانب أكثر سعة مثل شخصيته، ومثل إحساسه العميق بالعروبة وثورته في سبيلها ثورة عارمة، ومثل تمجيده للقوة والبطولة العربية في سيفياته، ومثل كافورياته، ومثل حكمه وما يداخلها من نظرات اجتماعية، وإنسانية وفلسفية، وكل هذه الجوانب عند المتنبي وما أشرنا إليه مما يماثلها ويناظرها عند غيره من الشعراء النابهين، بأن يقتصر الباحث الناشئ على جانب منها»[11]، والكلام نفسه ينطبق على الشخصيات المعاصرة من مبدعين في مجالات الأدب المختلفة شعرا أو نثرا أو نقدا.

ويرى شوقي ضيف أنه يتوجب على الدارس الناشئ للأدب أن يتسلّح بالثقافة الواسعة كمعرفته بعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وبيان وأخبار، ولابد له من الوقوف على الفكر الفلسفي، وكذا تاريخ الأدب والمدارس العربية وأسباب ظهورها، وأهمّ خصائصها وأعلامها وما إلى ذلك، وفي رأي شوقي دائما فلن يستطيع باحث في الأدب العباسي مثلا أن يسبر أغواره بدون الوقوف على المذاهب الأدبي وآراء المعتزلة والمرجئة والمتكلمين وغيرها، إذا دخلت في الفكر العباسي أسراب من الثقافات الأجنبية كالفارسية والهندية واليونانية وغيرها[12]، وقضية الرصيد الثقافي والخلفية المعرفية مهمة جدا بالنسبة لدارسي اللغة والأب عموما، ولا يمكن لصاحب الثقافة الضحلة والقليلة أن ينجح في إعداد بحث علمي في المستوى لفقدانه لأهم المعالم التي تنير الطريق ونقصد الزاد العلمي.

وإذا عجنا على الأدب الحديث فإن مهمة الباحث فيه ستكون حتما أشدّ صعوبة من الباحث في الأدب القديم، إذ يفترض عليه الوقوف طويلا على الآداب الأجنبية معرفة ودراسة، ولابد أن يتزود منها زادا يمكنه من الحكم على الأدباء المعاصرين الذين أخذوا بحظوظ مختلفة من تلك الآداب. وزاد مهم جدا ينبغي أن يتوفر له، وأقصد زاد النقد الأدبي، وهل يمكن لدارس أن يتحدّث عن شاعر معاصر وهو لا يعرف شيئا من نظرية الشعر في تصور النقاد المعاصرين من الغربيين، ولا عما كتبوه في اتجاهات النقد من نفسية وجمالية وطبيعية واجتماعية ولسانية وأسلوبية وغيرها من المناهج النقدية، وزاد آخر لا يقل أهمية وهو زاد المعرفة بتاريخ الآداب الغربية والعربية معرفة تقف بالباحث في وضوح على تطور الآداب ومظاهر تحولها[13]، وفضلا عن ظاهرة التأثير والتأثر فيما بينها وغيرها من الأمور التي تتعلق بتاريخ الآداب والتي تكون من البديهيات لدى الباحث في مجال الأدب.

وعودا على بدءٍ فالتجربة في مجال اختيار موضوع البحث تؤكد أن على الباحث أن يعمد إلى اختيار المواضيع التي تتناسب تناسبا حقيقيا مع تخصصه أولا، ثم ميولاته تاليا، إلا أن الدارسين يرون أن ذلك غير كافٍ ما لم يتسلّح الباحث بالخلفية المعرفية الواسعة والتي تأتي -كما أسلفنا الذكر- من القراءة الكثيرة والمطالعة الواسعة في مجال تخصصه، إضافة إلى القدرة على التصدي الجاد لموضوع بحثه، لأن «اختيار الموضوع من قبل الطالب مهمة شاقة ولاشك، وهي تتطلب منه اطلاعا مسبقا ولو محدودا على مختلف جوانبه، تمكنه من وضع تصور أو مخطط تفصيلي أولي له، إضافة إلى ذكر الدوافع لاختيار هذا الموضوع أو أسباب هذا الاختيار والمصادر والمراجع المعتمدة، والنتائج المتوقعة أو المتوخاة من البحث، وهذا الاطلاع المسبق إضافة إلى الاطلاع على نماذج من هيكلة الرسائل المنجزة لا غنى عنه، لأنه يشكل الانطلاقة الأولى الجادة في البحث»[14].

وقضية مهمة جدا على الباحث أن يتنبّه إليها أثناء عملية اختياره لموضوع بحثه ونقصد وفرة المصادر والمراجع وتنوعها، لأن ندرتها قد تقف أمامه حجر عثرة في الاستمرار في بحثه، وهنا عليه بالعودة إلى مشرفه واستشارته لمعرفة المشرف السابقة وتمرّسه في هذا المجال.

إضافة إلى استشارة المشرف في قضايا أخرى، فليس كل موضوع اقترحه الباحث يكون صالحا للبحث فيه، فمن الممكن أن يكون الموضوع المقترح قد استهلك بحثا، وقد يكون صالحا للبحث فيه، فمن الممكن أن يكون الموضوع المقترح قد استهلك بحثا، وقد يكون هذا الموضوع غير صالح للبحث البتة لعدم أهميته مثلا، وقد يكون موضوعا عاما واسعا مما يرهق الباحث نفسيا وجهدا وزمنيا، وفي الأخير يجد نفسه أنه لم يستطع أن يلمّ بجميع جزئياته، بل سوف يستغرق زمنا طويلا للاطلاع على المادة المعرفية (المصادر والمراجع) حول موضوعه قد تتجاوز المدة المسموح بها لإنهاء البحث.

ومن الباحثين من يعمد إلى اختار الموضوعات الفضفاضة، معتقدا سهولتها لكثرة المصادر والمراجع حولها سرعان ما يتيه في هذه الكثرة والوفرة، وكذا في كثرة الآراء والأفكار ووجهات النظر، وبالتالي فسوف لن تتوفر لهم المقدرة العلمية في التفضيل بينهما، ومثال ذلك أن يختار موضوعا كهذا: "تيمات الرواية العربية مشرقا ومغربا دراسة مقارنة"، فهذا الموضوع يمتد على فترة زمنية تتجاوز القرن من الزمن، وعلى عدد كبير جدا من المتون الروائية مشرقا ومغربا قد يتجاوز الألف، وعلى مساحة جغرافية واسعة جدا، وموضوع كهذا لا يستطيع صاحبه أن يطّلع على عُشْرِ المتون الروائية التي أنتجها العرب.

وبالتالي فالبحث جزئية محدودة لا يتطلب إلا الاقتصار على كمية محدودة من المصادر والمراجع، وتكون أقل بكثير مما تتطلبه المواضيع العامة الواسعة، وبالتأكيد سوف يُسعف الوقت الباحث في المواضيع المحددة والمضبوطة، وذلك في التعمق في كل ما أُلّف حول الموضوع المختار، وربما ظهرت للباحث أشياء جديدة قد تكون غابت عن غيره من الباحثين.

وهنا تجدر الإشارة إلى دور المشرف الكبير في توجيه الطالب لاختيار الموضوع، لأن المشرف له من الخبرة والدراية والمعرفة ما يؤهله ويمكنه من معرفة المواضيع المهمة وكذا المواضيع الجديدة والمواضيع

المستهلكة بحثا، كما أنّ له القدرة على معرفة مؤهلات طلبته العلمية، وقدراتهم البحثية، وهنا على المشرف مع الباحث أن يركزا على أمور منها:

-أهمية الموضوع العلمية.

- ثم هل الموضوع المختار صالح للبحث فيه؟

- وأخيرا قدرات الطالب العلمية وظروفه الشخصية؛ كحاجة الباحث إلى إتقان اللغات الأجنبية، وإنجاز بحثه في مدة زمنية محددة، أو السفر إلى الخارج إجراء بعض الأبحاث والدراسات أو الحصول على بعض المصادر[15].

ونجد بعض الدارسين المهتمين بهذا المجال يرون أن الطالب الباحث إذ وجد في نفسه ميلا لدراسة أي موضوع وجب عليه وقبل تسجيل الموضوع لدى الهيئات العلمية التي ينتسب لها، أن يطرح على نفسه طائفة من الأسئلة إذا أجاب عنها بالإيجاب فما عليه إلا الانطلاق في عملية البحث، وهذه الأسئلة هي:

1/ هل يستحق هذا الموضوع ما سيبذل فيه من جهد؟

2/ أمن الممكن كتابة رسالة حول هذا الموضوع؟

3/ أفي طاقتي أنا أن أقوم بهذا العمل؟

4/ هل أحب هذا الموضوع وأميل إليه؟

ولنعد إلى هذه الأسئلة بشيء من الإيضاح:

فعلى الباحث اختيار الموضوعات النافعة، فليست المسألة أن يكتب الطالب رسالة أو ينال درجة علمية، بل أن يُخرج موضوعا مفيدا يكون تذكارا جميلا لحياة الدراسة وأثرا خالدا، أو اختيار موضوع ينفع به غيره أو مجتمعه علميا بعد تمامه، وقد يكون الموضوع مفيدا ولكن المادة الموجودة فيه غير متوافرة ولا تكفي لتكوين رسالة علمية، والنظر إلى حالة الطالب وظروفه الخاصة، ومن ذلك اللغات التي يتقنها والوقت المخصص لهذا العمل وقدرات الطالب المادية.

أما السؤال الأخير فيتصل بالعاطفة التي لا يمكن أن نتجاهلها ولا يمكن لأي باحث التجرد منها، كأن يختار الطالب موضوعا يتنافى مع عقيدته أو أخلاقه، كأن يبحث شيعي في أدب السنة مثلا، أو شيوعي في الدين[16].

ويفترض في اختيار الموضوع أن يكون شديد الصلة بتخصص الطالب أثناء دراسته بالجامعة، كما يستحسن أن يُكلّف الطالب بتدبيج بعض البحوث في موضوعات تخصصه قبل أن يشرع في إنجاز البحث، لأن هذه الأعمال وبمساعدة المشرف ستفتح للطالب المجال على التدرب على موضوع بحثه، وهذا ما هو معمول به في مختلف الجامعات، فأثناء فترة التدريس خاصة فيما بعد التدرج يكلف طلبة الدكتوراه بإعداد بحوث في مواد تخصصهم، ثم هم مطالبون بنشر مقال للمناقشة، وكذا المشاركة في المتلقيات ودائما في مجال تخصصهم؛ بحيث تكون هذه الأعمال المنجزة طريقة من طرق التدريب على عملية البحث فيما بعد من جهة والاطلاع على بعض المصادر والمراجع من جهة مقابلة، واستكشاف أشياء قد تساعده على إعادة هيكلة البحث أو إضافة أشياء جديدة له.

5-مفهوم الإشكالية وكيفية ضبطها:

من أهم مقومات البحث الأكاديمي الناجح ضبط الإشكالية وتحديدها تحديدا دقيقا «ذلك أن البحث العلمي هو في حدّ ذاته طلبٌ لمجهول، غير متحدد في ذاته، وإن كنا نعلم بعض معالمه أو مظاهره أو آثاره، لكن حقيقته لا تعلم باليقين ولا بالظن الراجح، وإلا لما كانت هناك حاجة إلى بحثه، إن تسجيلك لموضوع لا ينبني على هذا الأساس ابتداءً يجعلك حتما تعمل خارج إطار (البحث العلمي)، ألم تر أنه يهدف إلى حل مشكلة معرفية؟ فكيف يكون البحث لا يبحث عن شيء؟»[17]، ومعنى ذلك أن تصاغ مشكلة البحث صياغة واضحة، بحيث تعبر عما يدور في خلد الباحث، وتظهر أو تبين الأمر أو القضية التي يرغب الباحث في إيجاد حل لها، ولا تتم صياغة المشكلة بوضوح إلا إذا استطاع تحديد العلاقة بين عاملين متغيرين أو أكثر، إثر ذلك تصاغ الإشكالية عن طريق وضع أسئلة تحتاج إجابة محددة ودقيقة وعلمية بعيدا عن الذاتية.

وقد حدّد متخصصو هذا المجال المعرفي خطوات المنهج العلمي في البحث أولا بتحديد المشكلة تحديدا دقيقا، إثر ذلك يقوم الباحث بجمع المعلومات عن هذه المشكلة، وبعد ذلك يضع الفروض المقترحة لحل تلك المشكلة مع اختبار صحة تلك الفروض ليصل إلى النتائج التي يمكن تعميمها.

فتحديد المشكلة يعتبر أهم خطوة على الإطلاق قبل بداية البحث، فعليها تقوم البحوث العلمية، وكثيرا ما تتشابك المشاكل وتتعقد، غير أنه بالتشخيص السليم يمكن التوصل إلى المشكلة الحقيقية وتحديدها، فارتفاع درجة حرارة شخص ما هي مشكلة تعبر عن حالة مرضية لها أسباب عدة، ومن ثم يتعين بحث أسبابها بدقة ووصف العلاج الناجح، وهكذا تسير البحوث، فعند الإحساس بظاهرة غير طبيعية (فكرية/ اجتماعية/ تربوية/ اقتصادية/ طبية/ زراعية/ سياسية/ صناعية) تسبب خللا، نحدّد المشكلة ونعرف أسبابها الحقيقية، ونقترح العلاج، ثم نعالج الأسباب مع المتابعة، وهنا يجب الإشارة أو التنويه إلى أنّ البحث العلمي لا يتمّ بطريقة الظن والتخمين، بل بالحقائق والمعلومات المتوفرة، ويحتاج تحديد المشكلة إلى خبرة ودراية من الباحث، وهي أمور تكتسب بالممارسة العلمية والعملية للبحوث، ومن القراءات المتعمقة قد يتّضح لنا أن المشكلة محل البحث يمكن تجزئتها إلى عدة أجزاء ومواضيع بحث، وكل موضوع يبحثه باحث، أو مجموعة من الباحثين حسب قدراتهم واستعداداتهم[18].

وكما هو معروف فإن المشكلة هي أساس البحث العلمي، بمعنى أن البحث الذي يبدأ من فراغ سوف ينتهي حتما إلى لا شيء، لذلك فإن ما يميز البحوث العلمية في عصرنا هو احتواءها على مشكلة أو معالجتها لمشكلة محددة وهامة، وفي حاجة ماسة إلى من يتصدى لها بالدراسة والتحليل من جوانبها المتعددة، حتى نستطيع أن نوجد لها الحلول المناسبة، ومن هنا فلا بد أن يبدأ البحث بإحساس من الباحث بوجود مشكلة معينة في إطار مجالات تخصصه، وفي إطار التصميم العام للمشكلة التي يبدأ الباحث في الإحساس بها وإدراكها يمكن أن يتطرق إلى تحديد المشكلة تحديدا دقيقا وتفصيليا، وهذا سيوفر عليه الجهد والوقت اللذان قد يبذلهما فيما لو لم يلجأ إلى التعرف على المشكلة التي يخضعها للأسلوب العلمي الدقيق من حيث المعالجة، وعلى ما يتعلق بها من حيث نشأتها وحدودها، ونوع البيانات الضرورية والطرق البديلة لحلها[19].

ولا نجانب الصواب إذا أكدنا على أن إدراك المشكلة ومعرفتها و«تحديد أبعادها يرجع إلى مدى عمق الباحث في فهم نهج هذه المشكلة، وسعة اطلاعه العلمي، ومدى خبرته العلمية، ومدى إحاطته بما يكون قد سبق إجراؤه من بحوث مماثلة في الماضي على نفس المشكلة أو على مشكلة مشابهة مما يساعده على أن يستفيد من خبرات هذه التجارب في تحاشي أخطائها، أو في استكمال نقائصها وفي إتمام عناصرها عند إجراء بحثه»[20]، وللوهلة الأولى قد تبدو هذه الخطوات للباحث في بداية البحث سهلة ويسيرة أو بديهية، إلا أنها في الواقع العلمي كثيرا ما نجد الموقف قد تغير جذريا أو جزئيا وتدخلت الكثير من المشكلات الأخرى بحيث يصعب فصلها عن الإشكال الذي كنا نتصوره نظرا لتدخل عناصر بحثية أخرى.

وإذا أردنا أن نعرف كيف نضع إشكالا لأي موضوع فإن ذلك يتأتى ربما من أن «الدارس حينما يدرس مجالا علميا ثم تحول بينه وبين الوصول إلى بعض الحقائق فيه عوائق معرفية معنية يكون ذلك هو بداية (الإشكال)، فإذا حاول الوصول إلى تلك الحقائق بواسطة طرق أخرى غير التي استعملها في البداية كأن يعدد المصادر والمراجع التي يطالعها في موضوعه، ثم يسأل الأساتذة والباحثين المتخصصين بالبحث في نفس المجال، لكنه مع ذلك يصطدم بنفس العوائق دائما، فإنه يتركب فيها حينئذ (الإشكال العلمي) الذي يمكن أن يعتبر أساس بحث حقيقي»[21].

وتأسيسا على ما سبق فإن قيمة البحث وأهميته إنما تتحدد بقيمة وأهمية إشكاله أساسا، فما موقعه من المجال الذي ينتمي إليه؟ وما حجم وأهمية العوائق المعرفية التي يتكون منها؟ فإذا كان حل كل ذلك خطوة ضرورية تتوقف عليها خطوات علمية مهمة، وتنبني عليها حلول إشكالات أخرى أساسية، كان البحث المختار أو المقترح على رأس الأولويات وفي مقدمة الضروريات منهجيا ومعرفيا، وفي المقابل تنقص قيمته بنقصان أهمية إشكاله إلى درجة الانعدام حينما يصير الإشكال وهميا لا حقيقيا، فالحرص على قيمة البحث إنما يكون بالحرص على أهمية إشكاله العلمي[22]، لذلك نجد المشتغلون بالبحث العلمي يؤكدون على أن اختيار مشكلة البحث وتحديدها ربما يكون أصعب من إيجاد حلول لها[23].

6. خاتمة:

وختاما فإن الاختيار الارتجالي لموضوع بحث قد يؤدي إلى عدم التوفيق في وضع الإشكال الذي سوف يعالجه هذا الموضوع، وبالتالي يجد الباحث نفسه يبذل في جهد كي يصل إلى لاشيء، لأن عمله حتما سيكون تجميعا ورصفا لمعلومات غيره ليعيد تركيبها وترتيبها من جديد، ومن أمثلة ذلك أن يختار الباحث مثل هذه المواضيع في الأدب والنقد (القصيدة الحرة)، (النقد المعاصر) (السرديات العربية)، فالسؤال الأول الذي يواجهنا هنا هو ما الأصل الإشكالي الذي تحويه هذه المواضيع؟ وبشكل آخر هل دراسة هذه المواضيع ستحل مشكلة معرفية ما؟

فموضوع القصيدة الحرة مثلا أو موضوع السرديات العربية لا يحتوي على إشكالية، أو لا يوجد به إشكال، وماذا سيعالج فيه الباحث؟ هل سوف يعالج خصائص القصيدة الحرة؟ هل سوف يعالج تمظهراتها وأسباب ذلك في الشعر العربي مثلا؟ فالعنوان خال من أي إشكال مطلقا.

الهوامش:

1- محمد الصاوي محمد مبارك، البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1992، ص.ز.
2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ز.
3- مهدي فضل الله، أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1998، ط.2، ص.12.
4- أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا أو رسالة دراسة منهجية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1992، ط.2، ص.13.
5- فريد أنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص.24.
6- ينظر: المرجع نفسه، ص.25.
7- ينظر: مهدي فضل الله، أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ص.18.
8- حاجي خليفة، كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ص.48.
9- شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، دار المعارف، القاهرة، 1992، ط.7، ص.18.
10- شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، ص.19.
11- شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، ص.ص.21-22.
12- ينظر: المرجع نفسه، ص.25.
13- شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، ص.25.
14- مهدي فضل الله، أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، دار الطليعة، بيروت، 1998، ط.2، ص.37.
15- ينظر: مهدي فضل الله، أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ص.39.
16- ينظر: أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا او رسالة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992، الصفحات من 36 إلى 41.
17- فريد أنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية، ص.26.
18- ينظر: محمد الصاوي محمد مبارك، البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1992، ص.ص.19-20.
19- ينظر: محمد منير حجاب، الأسس العلمية لكتابة الرسائل الجامعية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ط.3، ص.ص.22-23.
20- المرجع نفسه، ص.23.
21- فريد أنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية، ص.26.
22- ينظر: المرجع نفسه، ص.28.
23- ينظر: أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، والمكتبة الوطنية بليبيا، ودار غريب للطباعة بالقاهرة، 1977، ط.3، ص.61.

المصادر والمراجع

1- أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، والمكتبة الوطنية بليبيا، ودار غريب للطباعة بالقاهرة، 1977، ط.3.
2-أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا أو رسالة دراسة منهجية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1992، ط.2.
3-أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا او رسالة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992.
4-حاجي خليفة، كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
5-شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، دار المعارف، القاهرة، 1992، ط.7.
6-فريد أنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، المغرب، 1997.
7-محمد الصاوي محمد مبارك، البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1992.
8-محمد الصاوي محمد مبارك، البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1992.
9-محمد منير حجاب، الأسس العلمية لكتابة الرسائل الجامعية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ط.3.
10-مهدي فضل الله، أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، دار الطليعة، بيروت، 1998، ط.2.